الجهود الصوتية لابن دريد في مقدمة كتاب «جمهرة اللغة»

أ. د. عبدالحميد زاهيد*

مقدمة

تشكل مقدمة كتاب الجمهرة مساهمة صوتية متميزة، وحلقة منفردة في الدرس الصوتي العربي القديم. ويعتبر ابن دريد من المؤسسين الأوائل للدرس الصوتي للغة العربية، فرغم قصر المقدمة الصوتية التي افتتح بها كتاب الجمهرة إلا أنها غنية في بابها، مختلفة عما سبقها. يتجلى ذلك الاختلاف في المنهج والمصطلحات، فمنهج ابن دريد في دراسة الأصوات لم يكن لذاتها وإنما لغاية صناعة المعاجم؛ أما المصطلحات، فقد انفرد ببعضها عمن سبقه، والغريب في الأمر أن جلها لم يتداول بعده.

إن الهم المعجمي الذي يحمله ابن دريد، جعل مساهمته الصوتية تختلف عمن سبقه من النحويين واللغويين، وقد صرح بهذا التفرد قائلا: «وقد فسر النحويون مخارج الحروف وأجناسها تفسيرا آخر وقد أثبته لك وإن كان فيه طول لتقف على ألقاب الحروف ومخارجها»(1).

فقد جاءت تصنيفاته ومفاهيمه ومعظم مصطلحاته متميزة عن الخليل (ت١٧٥ هـ) وسيبويه (ت١٨٠ هـ) والفراء (ت٢٠٧ هـ) والمبرد (ت٢٨٥ هـ)، كما جاءت متميزة عمن عاصروه أمثال الرازي (ت٣٢٢ هـ) والزجاجي (ت٣٣٧ هـ) والفارابي (ت٣٣٩ هـ)، وعمن أتوا بعده كابن جني (ت٣٩٢ هـ) وابن سينا (ت٤٢٨ هـ) ومكي بن أبي طالب (ت٤٣٧ هـ).

إن ما يستدعي السؤال والحيرة، هو أن القرن الذي توفي فيه ابن دريد هو القرن الذي نشأ فيه علم الأصوات على يدي فارس الأصوات والدلالة أبي الفتح عثمان بن جني،لكن ذلك، لم يشفع عند ابن جني في تلقي جهود ابن دريد والترويج لإسهاماته الصوتية، ولعل السبب في ذلك اختلاف عميق بين الرجلين في المنهج اللغوي والاتجاه الفكري؛ يبدو أثر ذلك جليا في قول ابن جني: «وأما كتاب الجمهرة ففيه أيضا من اضطراب التصنيف وفساد التصريف ما أعذر واضعه فيه، لبعده عن معرفة هذا الأمر. ولما كتبته وقعت في متونه وحواشيه جميعا من التنبيه على هذه المواضع ما استحييت من كثرته. ثم إنه لما طال علي أومأت إلى بعضه، وأضربت البتة عن

(*) كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش، المغرب.

بعضه. وكان أبو علي يقول: لما هممت بقراءة رسالة هذا الكتاب على محمد بن الحسن قال لي: «يا أبا علي: لا تقرأ هذا الموضع علي، فأنت أعلم به مني»[٢]. والمقصود بالرسالة هنا مقدمة كتاب الجمهرة التي تتضمن الكلام على مخارج الحروف وتأليف الكلام.

ما نود أن نسطره في هذا المقام هو أن مساهمة هذا الرجل الفذ كانت متميزة تحكمها المقاربة المعجمية. إن دراسة ابن دريد للأصوات كانت تقديم أجوبة عن مشاكل معجمية بخلاف المقاربات الصوتية الأخرى عند أهل النحو والصرف، والقراءات، وأهل الموسيقى، فلكل علم أهدافه الخاصة في مقاربة الصوت.

مخارج الحروف في كتاب الجمهرة

ينبه ابن دريد إلى أن صناعة المعاجم تحتاج إلى الإلمام بقضايا الصوت، فذكر أن معرفة الحروف مطلب أساسي لمن أراد أن يلج هذه الصناعة. يقول: «ما يحتاج إليه الناظر في هذا الكتاب ليحيط علمه بمبلغ عدد أبنيتهم المستعملة والمهملة أن يعرف الحروف المعجمة التي هي قطب الكلام ومحرنجمه بمخارجها ومدارجها وتباعدها وتقاربها وما يأتلف منها وما لا يأتلف، وعلة امتناع ما امتنع من الائتلاف، وإمكان ما أمكن»[٣]. فمعرفة الأصوات مدخل أساسي إلى صناعة المعاجم، يعين على فهم البناء الصوتي للأبنية وتفسير عللها.

ويقول: «فهذا جميع مجاري الحروف ومدارجها فانظر فيها نظرا غير كليل، وأجل فيها فكرا ثاقبا تظفر بمرادك إن شاء الله، وإنما عرفتك المجاري لتعرف ما يأتلف منها مما لا يأتلف، فإذا جاءتك كلمة مبنية من حروف لا تؤلف مثلها العرب، عرفت موضع الدخل منها فرددتها غير هائب لها»[٤]. فالعلم بالأصوات وائتلافها يعين صانع المعجم على التمييز بين الأبنية ومعرفة الفصيح من غيره، والأصيل من الدخيل.

أما عدد حروف العربية، فقد شاع عند القدماء أنها تسعة وعشرون حرفا، إلا أن ابن دريد له رأي آخر وذلك في قوله: «اعلم أن الحروف التي استعملتها العرب في كلامها في الأسماء والأفعال والحركات والأصوات تسعة وعشرون حرفا مرجعهن إلى ثمانية وعشرين حرفا»[٥]. فالحروف عند ابن دريد ثمانية وعشرون حرفا وقد أسقط الألف منها، ويعتبر هذا المذهب الصوتي عين الحقيقة إذا علمنا أن المقصود بالحروف عند القدماء الصوامت المكتوبة. ويأتي تفرد ابن دريد بهذا الرأي منبها إلى أن الألف لا تحمل السمات الصوتية لباقي الحروف. ومما يدعو إلى التساؤل أن واضع علم الأصوات (ابن جني) لم يتبن هذا الرأي الصحيح، وإنما سار على رأي الخليل وسيبويه، يقول ابن جني: «اعلم أن أصول حروف المعجم عند الكافة تسعة وعشرون حرفا، فأولها الألف وآخرها الياء»[٦].

أما ابن دريد فحجته الصوتية في إسقاط الألف لأنها ساكنة ويستحيل البدء بها. يقول: «فمن ثم لم يعد في الحروف المعجمة حين وجوده راجعا إلى الثمانية والعشرين، فإن اللسان ممتنع من

أن يبتدئ بساكن أو يقف على متحرك، فإذا كانت كلمة أولها ألف، صارت همزة لحركتها وانتقالها إلى حال الهمزة»[٧]. إننا نثمن هذه الملاحظة الذكية من ابن دريد في إسقاط الألف من الحروف، ولكن الحجة في ذلك ليس السكون كما ذهب، وإنما لكونها حركة، والحركة لا يبدأ بها في كلام العرب.

إن اعتبار الألف من جملة حروف العربية، فيه خلط بين الحروف والحركات، لأن الألف لا تكون إلا حركة، لأنها حركة خالصة لا تقوم بوظيفتين كالواو والياء. فالدور الذي تقوم به هو دور الفتحة والضمة والكسرة. وإذا انقلبت همزة لم تعد حركة بل تصير حرفا، فكان الأولى إسقاطها من نظام الحروف، وعدها حركة خالصة، ولكن تأثرهم بالخط جعلهم يعدونها حرفا.

وقد أصاب ابن دريد في قوله: «وأما الحرف التاسع والعشرون فجرس بلا صرف»[٨] وهي إشارة ضمنية إلى أن السمات الصوتية للألف هي سمات حركات وليس سمات حروف.

لم يتميز ابن دريد فقط في رؤيته لعدد حروف العربية، بل تميز أيضا في الحديث عن مخارجها، ويأتي تميزه في هذا من الهم المعجمي الذي كان يؤرقه عند تأليف كتاب الجمهرة. فقد كان على علم بهذا التميز عندما قال: «وقد فسر النحويون مخارج الحروف وأجناسها تفسيرا آخر»[٩]، وهو يشير إلى ما ورد عن الخليل وسيبويه وغيرهما. ولم يكتف ابن دريد بحصر مخارج الحروف كما فعل سابقوه، بل أعاد ترتيب المخارج وصياغتها، صياغة تجيب عن الإشكالات المعجمية وتحل ألغاز الأبنية الصرفية. صاغ ذلك في مصطلحات صوتية تشي بعمق الملاحظة والتنظير. فقد جمع الأصوات كلها تحت صنفين: (صنف المصمت) و(صنف المذلق) وتحت كل صنف أجناس.

فإذا كانت الأصوات في علم الأصوات تصنف حسب مخارجها وصفاتها، فإن ابن دريد، ولغايات معجمية، صنف الأصوات تصنيفا لم أعثر على مماثل له في تراثنا الصوتي؛ إذ مزج بين المخرج والصفة في التصنيف، وعمد إلى المجرى الصوتي فقسمه قسمين: نصف أمامي ونصف خلفي، فالنصف الأمامي هو الذي اصطلح عليه ب (الحروف المذلقة) والنصف الخلفي ب (الحروف المصمتة). ويتضح المزج بين المخرج والصفة في مقاربة ابن دريد في أن من الأصوات ما يستلزم التصنيف في (المذلقة)، وهو - مع ذلك - يدرجها في صنف الحروف (المصمتة) لأنها لم تلب مطلب المخرج والصفة في آن واحد كما هو الحال في (ر- ن- ل) (حروف مذلقة) و(ت - ط - د) (حروف مصمتة) علما أنها جميعا من النصف الأمامي للمجرى الصوتي المخصوص للحروف (المذلقة). والعلة الداعية إلى وضع هذا التصنيف الجديد هي علة معجمية بامتياز. ونوضح امتزاج المخرج والصفة في مصطلح المصمتة والمذلقة في الجدول الآتي:

المذلقة	المصمتة
+ أمامي	- أمامي
+ موسيقي	- موسيقي

فبلغة الصوتيات الحديثة، كل صوت مذلق يجب أن يكون(+ أمامي) وهي إشارة إلى المخرج، و(+ موسيقي) وهي إشارة إلى الصفة، ونقصد ب (موسيقي)، تلك الأصوات التي يتغنى بها ويترنم في القوافي. فإذا فقد الصوت صفة الموسيقية حتى ولو كان أمامي المخرج، صنفه ابن دريد في خانة الحروف المصمتة، فتكون الحروف المصمتة إذن: كل الأصوات ذات المخرج الخلفي أو المخرج الأمامي الفاقدة للموسيقية. والغاية من هذا التصنيف سنوضحها بتفصيل في مبحث الفصاحة من هذا المقال. وفيما يلي رسم يوضح تصنيف ابن دريد لمدارج الأصوات:

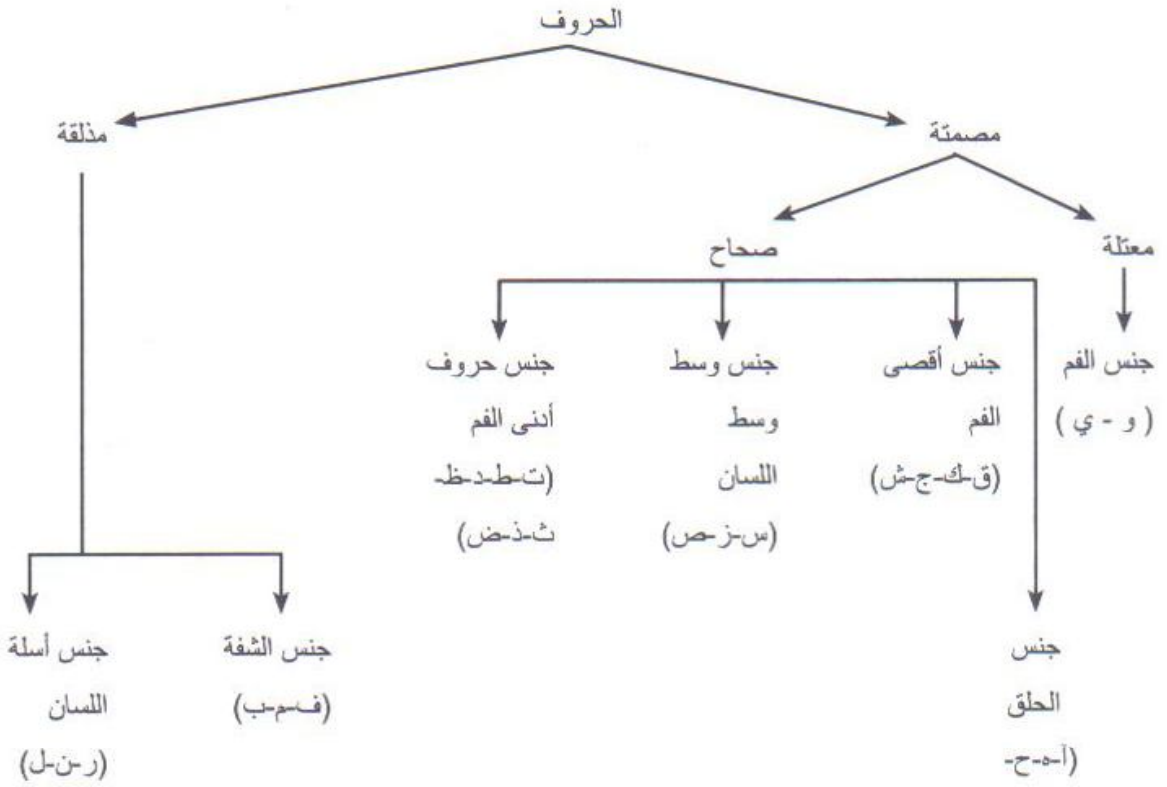

إن المتأمل في تصنيف ابن دريد للحروف، يلاحظ إسقاطه للألف من حروف المعجم، ولكن ما يثير فضول السؤال هو موقفه من الهمزة، إذ يعتبرها تارة مصمتة صحيحة وهي من جنس الحلق، وتارة يعتبرها مصمتة معتلة. وقد أثبت كونها مصمتة معتلة في حديثه عن الألف قائلا: «فمن اجل ذلك لم يبدؤوا به فإذا احتجت أن تحركه إلى لفظ أحد الحروف المعتلات (الياء والواو والهمزة)»[١٠]. ولكنه آثر أن يصنفها في المصمتة الصحاح ليناقض بذلك ما صرح به. يقول ابن

دريد: «وتسعة عشر حرفا صحاحا»[١١]. ولكنها في العد عشرون بإضافة الهمزة؛ وكذلك نلمس هذا التعارض في قوله «ثلاثة منها معتلات»[١٢]، ولكنها في العد اثنتان: الواو والياء، ليلحق الهمزة بالمصمتة الصحاح. أما عن مخرج الهمزة، فقد توفق ابن دريد توفيقا لم يكن من نصيب الخليل ومن أتوا من بعده، حين اعتبر «الهمزة من مخرج أقصى الأصوات»[١٣] وهو تحديد لم نظفر به إلا عند المبرد (ت٢٨٥ هـ) عندما قال «الهمزة حرف يتباعد مخرجه عن مخارج الحروف ولا يشاركه في مخرجه شيء ولا يدانيه إلا الهاء»[١٤].

ومهما يكن الأمر، فتأرجح موقف ابن دريد في الهمزة بين الاعتلال والصحة له ما يبرره صوتيا، وهو موقف معروف عند من سبقه ومن أتى من بعده. أما الطريف والجديد عند ابن دريد فهو إسقاطه الألف من كونها حرف علة، لتكون حروف العلة عنده ثلاثة (الواو والياء والهمزة)، أما عند الخليل وباقي اللغويين فهي (الألف والياء والواو والهمزة)، وقد ألحق الخليل ومن تبعه الهمزة بالألف والواو والياء لأسباب صوتية وصرفية لا يسع المقام لشرحها[١٥].

صفات الحروف في كتاب جمهرة اللغة

من بين الإسهامات النوعية لابن دريد في الدرس الصوتي حديثه عن الجهر والهمس. فقد ظل هذان المصطلحان لغزين من ألغاز سيبويه، والدليل على ذلك أن الذين أتوا من بعده اكتفوا بترداد التعابير الواردة عنده دون إضافة جوهرية تحل التعقيد. فقد كان سيبويه أول من تعرض لهذين المصطلحين، وقد سار على نهجه من أتى من بعده أمثال المبرد (ت٢٨٥ هـ)، وابن يعيش (ت٦٤٣ هـ) والاستراباذي (ت٦٨٦هـ) والتهانوي (ت١١٥٨ هـ)»[١٦]. إلا أن ابن دريد اقترح تعريفا للجهر والهمس لم يسر فيه على منوال سيبويه، فلم يبرح تعريفه كتاب الجمهرة، وظل حبيسا فيه لم يلتفت إليه أحد.

عرف ابن دريد الحروف المجهورة بقوله: «سميت مجهورة لأن مخرجها لم يتسع، فلم يسمع لها صوتا»[١٧]، أما سيبويه فيعرفها بقوله: «المجهورة حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت»[١٨].

سيبويه	ابن دريد
المجهورة	المجهورة
- إشباع الاعتماد	-عدم اتساع المخرج
- منع النفس	- صوت خافت

إن مفهوم الجهر عند سيبويه ومن سار على دربه متضمن لإشباع الاعتماد ومنع النفس، أما عند ابن دريد فمتضمن لعدم اتساع المخرج وخفوت الصوت. فالصوت المجهور عند سيبويه مضغوط مخنوق، وعند ابن دريد احتكاكي خافت، ولا سبيل للدمج بين التعريفين أو للتوفيق بينهما.

أما الحروف المهموسة، فقد عرفها ابن دريد «وإنما سميت مهموسة لأنه اتسع لها المخرج فخرجت كأنها متفشية»(١٩). ويعرفها سيبويه بقوله: «وأما المهموس، فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه»(٢٠).

سيبويه	ابن دريد
المهموسة	المهموسة
- ضعف الاعتماد	- اتساع المخرج
- جري النفس	- التفشي

إن العلاقة التي تحكم الحروف المهموسة عند سيبويه هي علاقة ضعف اعتماد وجري النفس، وعند ابن دريد علاقة اتساع المخرج وتفشي الأصوات. فالأصوات المهموسة عند سيبويه غير مضغوطة ومتنفسة، وعند ابن دريد متسعة المخرج ومتفشية.

إن مفهوم الهمس عند كل من سيبويه وابن دريد على عكس مفهوم الجهر، يمكن دمجهما وإيجاد قواسم مشتركة بينهما، ويبقى ابن دريد متميزا عن سيبويه في إضافة سمة صوتية أخرى عبر عنها ب (كأنها متفشية)، وليس المقصود بالتفشي هنا حروف التفشي المعروفة؛ والدليل على ذلك قول ابن دريد (كأنها)، وإنما أراد شيئا آخر يشبه التفشي.

وانطلاقا من تعاريف سيبويه وابن دريد، يمكن القول: إن ابن دريد لم يسر في ركب سيبويه كما سار الآخرون، وإنما اجتهد في تعريف الجهر والهمس وأعطى بعدا صوتيا جديدا لهما. فسيبويه ينحى بالمجهور والمهموس إلى ما يعرف حديثا بالانفجاري والاحتكاكي، نستخلص ذلك من قوله في المجهور (منع النفس) وفي المهموس (جري النفس)؛ أما ابن دريد، فالمجهور عنده يتصف ب (الخفوت)، والمهموس يتصف بشيء يشبه (التفشي). وكأني بابن دريد، بثنائية (الخفوت/ التفشي)، يرمي إلى ما يعرف في علم الأصوات الحديث ب (الجهارة و عدم الجهارة)، (sonorité). إننا على وعي تام بصعوبة التطابق بين الخفوت والتفشي من جهة، والجهارة وعدمها من جهة أخرى، ولكن قصدنا من ذلك التقريب لا غير.

سيبويه		ابن دريد	
المجهور	المهموس	المجهور	المهموس
انفجاري	احتكاكي	صوت غير جهير	صوت جهير

كما تحدث ابن دريد عن باقي صفات الحروف من مد ولين، وإطباق، وشدة، ورخاوة، ولكن الطريف في حديثه عن هذه الصفات، هو حديثه عن (المصمتة والمذلقة).

فقد استطاع ابن دريد أن يبدع في تصنيف الحروف مستندا إلى هاتين الصفتين، وقد كانت الغاية التي تحكم تصنيفه كما أسلفت غاية معجمية لم يكن السباق إليها، فقد سبقه الخليل بن أحمد في كتابه (العين) إلى نفس التصنيف ولكن بطريقة محتشمة. يتجلى هذا الاحتشام في أمرين: أولهما أن الخليل لم يركز على الحروف المصمتة قدر تركيزه على الحروف المذلقة، وثانيهما أن مصطلح (المصمتة) الوارد عند ابن دريد ورد عند الخليل ب (الصتم) مرتين، وقد كانت إشارة عابرة في موقعين في مقدمة العين: مرة بقوله: «الحروف الصتم»[٢١] ومرة بقوله: «ومن الذلق والصتم»[٢٢]، أما مصطلح (المصمتة) فلم يرد ذكره عند الخليل لا في مقدمة كتاب العين ولا في مادته، وكذلك لم يتعرض له سيبويه في الكتاب. وعدم ذكر سيبويه للمصمتة له ما يبرره، فالرجل لم يكن بصدد كتاب معجمي، ولم يكن بحاجة إلى مفاهيم تعينه على صناعة المعجم، ولذلك اقتصر على ذكر ما هو بحاجة إليه في تفسير ظواهر الادغام والمماثلة وغيرهما.

أما عن سبب تسمية (المصمتة) و(المذلقة)، فيقول ابن دريد: «وسميت الأخر (مصمتة) لأنها أصمتت أن تختص بالبناء إذا كثرت حروفه لاعتياصها على اللسان»[٢٣]، أما المذلقة فسميت بذلك «لأن عملها في طرف اللسان وطرف كل شيء ذلقه»[٢٤]، كما يصفها بأنها «أخف الحروف وأحسنها امتزاجا بغيرها»[٢٥].

فالحروف المصمتة عند ابن دريد في النصف الخلفي من المجرى الصوتي، يستعصي على اللسان نطقها؛ أما المذلقة، فمن النصف الأمامي من المجرى الصوتي، وهي خفيفة على اللسان، سهلة في النطق. وقد لاحظ ابن دريد وقبله الخليل أن هذه الأصوات الذلقية في معظمها غير مستكرهة في السمع لا كزازة فيها، وهي الملاحظة نفسها التي ذهب إليها الموسيقيون حين ألحقوا هذه الأصوات بالحركات وأصوات المد واللين»[٢٦]. إن خصوصية امتداد النغم في الحروف الذلقية جعلت أهل الموسيقى يتغنون بها، ويولونها عناية خاصة مقارنة مع باقي الأصوات، كما جعلت أهل الشعر يفضلونها قوافي لشعرهم، وجعلت أهل المعاجم يشترطونها في أبنية اللغة، ولعل جمال العربية من جمال وحلاوة تلك الأصوات في النطق والسمع، ولهذا نجد ابن دريد وقبله الخليل يخرجان من العربية كل بناء رباعي أو خماسي خلا من الحروف المذلقة. يقول الخليل: «فلما ذلقت الحروف الستة، ومذل بهن اللسان وسهلت عليهن في المنطق كثرت في أبنية الكلام. فليس شيء من بناء الخماسي التام يعرى منها او من بعضها»[٢٧] وفي السياق نفسه يقول ابن

دريد: «فإن جاءك بناء يخالف ما رسمته لك، فإنه ليس من كلام العرب... فإن قوما يفتعلون هذه الأسماء بالحروف المصمتة ولا يمزجونها بحروف الذلاقة، فلا يقبل ذلك، كما لا يقبل من الشعر المستقيم الأجزاء إلا ما وافق ما بنته العرب من العروض»[٢٨].

علم الأصوات المقارن في كتاب جمهرة اللغة

امتاز ابن دريد في مقدمة كتابه بما يعرف اليوم بالصوتيات المقارنة. صحيح أن مقدمة الكتاب لا تشتمل على مادة كثيرة في هذا الموضوع، ولكن، شذرات هنا وهناك تشي بأن الرجل لم يكن فقط على علم بأصوات العربية، بل على علم أيضا بلغات أخرى. يتجلى ذلك عندما قارن بين العربية ولغات أخرى في قوله: «اختصت العرب دون باقي الأمم بالحاء والظاء»[٢٩]، وقوله «ستة أحرف للعرب ولقليل من العجم وهي العين والصاد والضاد والقاف والطاء والتاء، وما سوى ذلك للخلق كلهم من العرب والعجم»[٣٠]، وقوله أيضا «الهمزة لا تأتي في كلام العجم إلا ابتداء»[٣١]. وكذلك قوله: «حروف لا تتكلم بها العرب إلا ضرورة، فإذا اضطروا إليها حولوها عند التكلم بها إلى أقرب الحروف من مخارجها، فمن تلك الحروف الحرف الذي بين (الباء والفاء)... أو بين (القاف والكاف) و(الجيم والكاف)»[٣٢]، وهي إشارة من ابن دريد إلى انفتاح العلماء العرب على أصوات لغات أخرى.

علاقة الأصوات بفصاحة الأبنية في كتاب جمهرة اللغة

لم تقتصر دراسة علاقة الأصوات بالأبنية عند اللغويين، بل سرعان ما انتقل السؤال ليبحث ليس فقط في الأبنية كما هو الحال عند أهل المعاجم، بل ليشمل ما يعرف في علوم البلاغة ب (فصاحة الكلمة والكلام). وقد تشكلت مدارس للإجابة عن هذا السؤال توزعت بين المدرسة النطقية بزعامة ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ)، والزملكاني (ت٦٥١ هـ)، والطيبي (ت٧٤٣ هـ)، وعلي الجرجاني (ت٧٦٩ هـ)، والبابرتي (ت٧٨٦ هـ)، والعباسي (ت٩٦٣ هـ)، والمدرسة الإدراكية بزعامة ابن الأثير (ت٦٣٧ هـ)، وابن أبي الحديد (ت٦٥٦ هـ)، والعلوي (ت٧٤٥ هـ)، وابن يعقوب المغربي (ت١١٢٨ هـ)، والمدرسة الدلالية بزعامة عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١ هـ)، فقد كانت لكل مدرسة من هذه المدارس رؤيتها ومنهجها في تفسير علاقة الصوت بفصاحة الكلمة والكلام»[٣٣].

ويمكن القول، إن فكرة ربط الأصيل (ضد الدخيل) والفصيح بتباعد المخارج نشأت مع اللغويين قبل أن تنتقل إلى البلاغيين. فقد أشار إليها الخليل عندما ميز بين (الصتم والذلق)، وتبناها ابن دريد بشكل واضح في قوله: «واعلم أن الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت لأنك إذا استعملت اللسان في حروف الحلق دون حروف الفم ودون حروف الذلاقة كلفته جرسا واحدا وحركات مختلفة. ألا ترى أنك لو ألفت بين الهمزة والهاء والحاء فأمكن،

لوجدت الهمزة تتحول هاء في بعض اللغات لقربها منها... وإذا تباعدت مخارج الحروف حسن وجه التأليف»(٣٤).

ويضيف ابن دريد في موقع آخر من المقدمة: «واعلم أن أحسن الأبنية عندهم أن يبنوا بامتزاج الحروف المتباعدة، ألا ترى أنك لا تجد بناء رباعيا مصمت الحروف لا مزاج له من حروف الذلاقة إلا بناء يجعل بالسين مثل عسجد، وذلك أن السين لينة وجرسها من جوهر الغنة فلذلك جاءت في هذا البناء»(٣٥).

فامتزاج الحروف المذلقة بالمصمتة شرط في الأبنية الرباعية والخماسية، وبه يعرف الأصيل من الدخيل، وإن تعذر ذلك لجأ الواضع إلى صوت يشارك حروف الذلاقة في بعض الصفات كما هو الحال في السين، ولذلك لا نجد في كلام العرب مزجا بين القاف والكاف، وبين الجيم والكاف، وذلك لأنها كلها مصمتة.

إن اعتماد ابن دريد على مبدأ تباعد المخارج في تفسير الأبنية والكلام، يجعله من المؤسسين اللغويين للمدرسة النطقية. وإن كان لنا أن نميز بين المدرسة اللغوية والبلاغية، فالمدرسة النطقية تعتمد المعيار النطقي وعلاقة الأصوات فيما بينها للتمييز بين الأصيل والدخيل، والمتلائم والمتنافر، والفصيح وغير الفصيح، فكلما كانت الحروف متقاربة كلما استعصت على اللسان وصارت متنافرة غير فصيحة، وكلما كانت متباعدة المخارج ممزوجة من المصمتة والمذلقة كلما كانت أصيلة متلائمة.

ويبقى السؤال، هل تقارب الحروف أم طبيعة الحروف المتقاربة هي التي تحدد الفصيح من الأبنية والكلام؟

إن ما نذهب إليه ردا على المدرسة النطقية والإدراكية: أن ليس التقارب هو العلة في التنافر، وإنما طبيعة هذا التقارب، وطبيعة الحروف الممزوجة هي التي تضفي الحسن أو القبح على الألفاظ، وأن ليست العبرة بانحدار اللسان أو صعوده، وإنما باتجاه حركته. وكذلك، ليس الذوق منقطعا عن التفسير سببا في المفاضلة، بل إن لذة المسموع نتيجة عن أسباب، وبإزالة الأسباب تزول النتائج»(٣٦).

خاتمة:

لقد استطاع ابن دريد في مقدمة الجمهرة أن يضيف نقلة نوعية للدرس الصوتي العربي. فلم يكن ابن دريد مقلدا في آرائه، بل كان مجتهدا متمتعا بحس صوتي جعل منه رائدا من رواد علم الأصوات في التراث العربي الإسلامي؛ فقد أبدع في تصنيف الحروف وعددها ومفاهيمها، إلا أن جهوده ظلت حبيسة جمهرته، فلم يكتب لها الانتشار بين العلماء، وقد كان حريا بابن جني أن يتبناها ويعرف بها، ولكنه لم يفعل، ولعل للرجل في ذلك عذرا، أو لعله فعل بذلك خيرا.

الهوامش:

(١) جمهرة اللغة: ص٨.
(٢) الخصائص: ج ٣٦،ص٢٨٨.
(٣) جمهرة اللغة: ص ٤.
(٤) المصدر نفسه: ص ٨-٩ .
(٥) المصدر نفسه: ص ٤.
(٦) سر صناعة الإعراب: ص٤١.
(٧) جمهرة اللغة: ص٧.
(٨) المصدر نفسه: ص٧.
(٩) المصدر نفسه: ص٧.
(١٠) المصدر نفسه: ص٨.
(١١) المصدر نفسه: ص٨.
(١٢) المصدر نفسه: ص٧.
(١٣) المصدر نفسه: ص٦.
(١٤) المقتضب: ج١، ص١٥٥.
(١٥) حركات العربية: ص ٦٦-٧١.
(١٦) مفهوم الجهر والهمس عند سيبويه: ص ٢٦٥-٢٧٥.
(١٧) جمهرة اللغة: ص٨.
(١٨) الكتاب: ج٤، ص٤٣٤.
(١٩) جمهرة اللغة: ص٨.
(٢٠) الكتاب: ج٤، ص٤٣٤.
(٢١) العين: ج١،ص ٥٤.
(٢٢) نفسه:ج١، ص٥٥.
(٢٣) جمهرة اللغة: ص٧.
(٢٤) المصدر نفسه: ص٧.
(٢٥) المصدر نفسه: ص٧.
(٢٦) الصوت في علم الموسيقى العربية: ص١١٥-١٣٠.
(٢٧) العين: ج١، ص٥٢.
(٢٨) جمهرة اللغة: ص١١.
(٢٩) المصدر نفسه: ص٤.
(٣٠) المصدر نفسه: ص٤.
(٣١) المصدر نفسه: ص٤.
(٣٢) المصدر نفسه: ص٤-٥.
(٣٣) الصوت في الدراسات النقدية والبلاغية: ج١٨، ص٧٣.
(٣٤) جمهرة اللغة:ص٩.
(٣٥) المصدر نفسه:ص١١ .
(٣٦) الصوت في الدراسات النقدية والبلاغية:ص٢٣-٤٢.

الجهود الصوتية لابن دريد في مقدمة كتاب «جمهرة اللغة»

أ. د. عبدالحميد زاهيد

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

المملكة الأردنية الهاشمـــية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١١/٩/٣٤٠٨)

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية.

إعداد وتحرير

د. عليان عبدالفتاح الجالودي
وحدة الدراسات العُمانية

د. كمـال أحمـد المقابلـة
وحدة الدراسات العُمانية

❖ جميع حُقوق هذا الكتاب محفوظة، غير مسموح بطبع أي جزء من أجزاء هذا الكتاب، أو اختزانه في أي نظام لاختران المعلومات واسترجاعها، أو نقله على أية هيئة أو بأية وسيلة سواء أكانت الكترونية أو شرائط ممغنطة أو ميكانيكية، أو استنساخاً، أوتسجيلاً أو غيرها، إلا في حالات الاقتباس المحدودة بغرض الدراسة مع وجوب ذكر المصدر ويعتبر الكتاب ملكاً لجامعة آل البيت.

❖ الآراء والأفكار المذكورة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن سياسة جامعة آل البيت.

التنضيد الضوئي والإخراج الفني
عبدالرحمن الحيحي
عوني هزايمة

جامعة آل البيت
وحدة الدراسات العُمانية
سلسلة أعمال الندوات والمؤتمرات (8)

ابنُ دُريدٍ الأَزديّ

أعلمُ الشُّعراءِ وأشعرُ العُلماءِ

أوراق المؤتمر الدولي السابع الذي نظمته وحدة الدراسات العُمانية في جامعة آل البيت بالتعاون مع سفارة سلطنة عُمان الشقيقة في المملكة الأردنية الهاشمية
بتاريخ ١٧-١٩ جمادى الأولى ١٤٣٠هـ/ ١٢-١٤/ أيار (مايو) ٢٠٠٩م

إعداد وتحرير

د. عليان عبدالفتاح الجالودي
وحدة الدراسات العُمانية

د. كمال أحمد المقابلة
وحدة الدراسات العُمانية

المجلد الأول
منشورات جامعة آل البيت
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

جامعة آل البيت
وحدة الدراسات العُمانية
سلسلة أعمال الندوات والمؤتمرات (٧)

١٠٥

ابنُ دُريدٍ الأزديُّ

أعلمُ الشُّعراءِ وأشعرُ العُلماءَ

إعداد وتحرير

د. عليان عبدالفتاح الجالودي
وحدة الدراسات العُمانية

د. كمال أحمد المقابلة
وحدة الدراسات العُمانية

المجلد الأول

منشورات جامعة آل البيت
١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م

جامعة آل البيت